ومن ثمّ نقول ايضاً عن سوريَّة أنّهـا من الاقطار التي استوطنتها المستعمرات البشريَّة الاولى إن لم تكن اوَّل ارض وطئها الانسان بقدمهِ . وما لا ريب فيـهِ انَّ سوريَّة قد تفرَّدت مع بلاد بابل والقطر المصري بكونها حفظت اقدم ما وُجد من الآثار المنبئة بوجود الانسان الناطقة باعمالهِ الاولى . وهو لعمري مجدٌ اثيل احرزتهُ لها في ميدان لم يجارِها فيهِ الَّا القليل

٢

موقع سوريَّة الجغرافيّ

لسوريَّة فضلًا عن كونها من مواطن البشريَّة الاولى فضلٌ آخر وهو موقعها العجيب في وسط المعمور . فانَّها قائمـة في حدود الشرق كالحارس يصونها وهي مع ذلك قسم صالح من حوض البحر المتوسّط الذي يوصلهـا باقطار الغرب تراها منفصلةً عن آسية المتقدّمة بجبال طورس الشامخة وبصحاري جزيرة العرب يصلهـا بافريقية برزخ دقيق برزخ سويس واقعـةً على سواحل البحر المتوسط الذي كان يُعدّ الى اواسط القرن السادس عشر كبحر المسكونة كلها فأسرع سكّان الشام وسلكوا هذه الطريق اللاحبة ودخلوا ذلك الباب الواسع المفتوح في وجه نشاطهم وتقاطروا الى الجزائر النازحة والبلاد السحيقة الواقعة في الغرب فطبعوا فيها صورة تمدُّنهم وآثار حياتهم . فكأنهُ تبارك وتعالى لم يجعل سوريَّة على جوار البحر المتوسط الذي اضحى منذ ٣٠٠٠ سنة من اخصّ سُبُل التمدُّن الَّا ليجعل اهلها في مقدّمة روَّاد المدنيَّة ونَقَلة الأُلفة فقاموا بهذه المهمَّة احسن قيام مدَّة نيّف والف سنة

قد قلَّد الله كلّ شعب دعوةً يفيد بها الهيئة الاجتماعيَّة . امَّا خاصَّة الفينيقيين واهل سوريَّة فانّ دعوتهم انَّما كانت نشر التمدُّن . نعم انَّ التمدّن بلغ في بابل واشور مبلغًا اعظم منهُ في انحاء الشام كما انَّ عقول الاشوريين لم تكن أقلّ توقُّدًا من جيرانهم .

لكنَّ فعلهم في نشر الترقي المدنيّ كان دون فعل الفينيقيين. فماذا انقصهم لذلك ؟ انهم لم يُعطَوا هبةً نالها السوريُّون فامتازوا بها في كلّ اجيالهم نزيد الاقدام على نشر المشروعات. لانَّ الاشوريين لم يجدوا بقربهم باباً بحريًا يخرجون منهُ الى بقيَّة انحاء العالم وينشطهم على العمل ويشدّد ازرهم المتوسط في المعاملات بين الشعوب المتباينة وكلّ ذلك قد اصابهُ السوريُّون لوجود موطنهم بين بلاد متوغلة في التمدُّن وبلاد جديدة كانت منتظرة نعمة هذه المدنيَّة. وكان السوريون دون جيرانهم البابليين والمصريين قدرةً وثروة فسدُّوا ما ينقصهم من هذا الوجه بما اتاحهم الله من حسن الموقع والمنافع الجغرافيَّة

ولمَّا نالت سوريَّة هذا المقام في الوَضع الطبيعيّ صارت في كلّ الازمنة هي الوصلة بين الشرق والغرب تنـــوط بهما جميعاً دون ان تختصّ باحدهما . فان اعتبرت سكَّانها ولغتها ورسومها فهي شرقيَّة. وان لحظت جيرتها من بحرٍ غربيّ ومعاملاتها المتوالية مع الامم الساكنة في حوض البحر المتوسط واخلاق اهلها المتنوّعة العامَّة وميلهم الطبيعي الى التهاجر ومخالطة الشعوب ومعاطاة الاشغال فهي اشبه بالغرب

ولذلك تراها اذا تصفَّحت تاريخها القديم كمعبر ومجتمع كانت تتصافح فيهما كلّ الامم القديمة فتتلاقى فيهما كأنها في بلادها جميعاً. وكان الله سبحانهُ وتعالى قد قضى ان يكون هذا الالتقاء سلميًا جامعاً للقلوب وربَّما تبلبل نظام الخالق بسوء نيَّات الشعوب فصارت سوريَّة ساحةً للقتال جرت فيها الدماء سيولًا بدلًا من ان تصير سوقًا لتجارة الارض ومرسحاً للألفة والتحابّ. فكم من امَّة طمعت في اقتناء سوريَّة وبذلت دونهـــا كلّ غالٍ ونفيس خصوصاً في ايام الاشوريين وفي عهد الفراعنة. فكانت منافعها الجغرافيَّة تتحوَّل لها الى ويلات وشرور . وقد قامت بعد هذه الدول دول اخرى تختلف اسماً وجسماً لكنَّها لم تختلف فعلًا. وكما قدم الى سوريَّة رعمسيس الثاني ونبوكدنصَّر كذلك جاءها الاسكندر وكثيرون غيرهُ ترى كتاباتهم واسماءهم مرقومة في متحف طبيعيّ عجيب تحت القبَّة الزرقاء اعني بهِ مضيق نهر الكلب (١

فلمَّا رأى ملوك بابل واشور ما خصَّ الله بـــهِ بلاد سوريَّة من خصب التربة ومن حسن الموقع للمعاملات التجاريَّة احبُّوا ان يجعـــلوا البحر المتوسّط تحت سيطرتهم

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ٨–٩)

لتسهيل المواصلات بين بلاد الشام ووادي دجلة والفرات وتلك لعمري كانت مسئلة حيويّة اذ بها تنفتح الطرق التجاريّة فتُنقل الى جهات الغرب مرافق الهند وثروتها (١ . فما كان من امرهم لتحقيق غايتهم الّا ان يتعقّبوا آثار القوافل الكنعانيّة التي سبقتهم الى الاستيلاء على الشام وكان يحدوهم ايضاً الى سيرهم الى الامام رغبتهم في مبارزة فراعنة مصر وهم لم يعرفوا دولةً أُخرى تقوى على ان تحولهم دون انجاز مقاصدهم فتنتزع من ايديهم السلطة على آسية (٢ . وكان لهم سبب آخر ينهض هممهم ويدفعهم الى جهة البحر المتوسّط اعني حاجتهم الماسّة الى الخشب وكانوا في ذلك والمصريين سواء فلم يرضوا ان ينتفع الفراعنة وحدهم من غابات سوريّة الفاخرة لا سيّما ارزها الذي كانوا يتّخذونهُ لزخرفة مبانيهم وقصورهم حيث وُجدت آثارها في أيّامنا (٣

وهنا لا يجوز لنا ان نضرب الصفح عن امرٍ لم يكن في الحسبان وهو تأثير غابات لبنان في احوال اهلها وتدبير شؤونهم . فانّ هذه الاحراج هي التي اكسبت الفينيقيين نقابة البحر لأنّ منها كانوا يستمدُّون الاخشاب اللازمة لتجهيز السفن فصاروا بذلك في مقدّمة الملاّحين يتولّون التجارة البحريّة مع البلاد البعيدة . لكنّ هذه المنافع ايضاً قد حرّكت مطامع الشعوب المحيطة بهم للاستيلاء على بلادهم . فترى كيف الاهواء البشريّة تتعرّض لأحكامهِ تعالى فتبلبل النظام الذي سنّهُ لكلّ بلاد . وقد سبق انّ سوريّة في رسم الخالق وُضعت لتكون بلداً وسطاً يجمع في التحابّ والالفة الشعوب المتنائية

واعلم انّ اقطار الشام لم تشعر فقط بثقل وطأة الامم الشرقيّة لكنّها نالت ايضاً من موقعها نعماً عزّتها عن هذه المساوئ وخوّلتها منافع مشكورة ومنناً سابغة فانّ وقوعها بجوار بلاد اليونان كان سبباً لترقّيها في الصنائع والفنون ولتقدُّمها في ضروب العلوم . وكذلك استفادت من الرومان حسن سياستهم وتدبيرهم وصيانتهم

---

١) اطلب كتاب شرادر وونكلر في الكتابات المسماريّة والعهد القديم (Schrader-Winckler: *Die Keilinschriften und das alte Testament*, 37; 41; 46; 78)

٢) اطلب Comptes-rendus de l'Acad. de Berlin, 1906, p. 356 ثمّ التاريخ القديم للمسيو مسپرو (Maspéro: *Hist. ancienne*, I, 392-3)

٣) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ١٢٠)

للسلام كما تعلّمت من امم القرون الوسطى ان تدافع عن المبادئ الدينيّة اذ رأت ما للدين من القوّة في طلب آثارهِ القديمة وصيانة معابدهِ التي لاجلها اهتزّت شواعر الوفرِ من البشر فبرحوا المواطن حبًّا بها (١

ليس التاريخ الّا صدًى لاصطدام الاهواء البشريّة ولما ينجم عن التحامها من النكبات ومن الحروب ومن الخرائب. وعلى خلاف ذلك السلام والخير والفضيلة فانّها لا يُسمع لها جلبةٌ. وبناء على هذا قد قال القائل: طوبى للأُمم التي ليس لها تاريخ وهذا لا يصحُّ في سوريّة كما رأينا. وكان الأَولى بها وباهلها ان تبقى في عزلتها دون ان تستلفت اليها نظر العالم. لكن الشعوب كما الافراد لا يمكنها ان تؤثر لها خطّة تجري عليها باختيارها وتنسج على منوالها حياتها العموميّة لأَنّ الشعوب في التفكير والله في التدبير

*

اعلم انّ الثروة والجمال موهبتان خطرتان واوّل غوائلهما انهما يثيران الحسد على اصحابهما. قلنا انّ الله سبحانهُ وتعالى اذ منح لسوريّة موقعًا اثيرًا جعلها كطريق عامّ يجمع بين ثلاث قارات العالم القديم وذلك انّ سوريّة محصورة بين البحر والبادية ففيها وحدها طريق سهل يمكن سلوكهُ بين آسية وافريقية وقد ادرك الفينيقيُّون ذلك فجعلوها سوقًا واسعةً لتجارة الخافقين ومعبرًا متواصلًا لقوافل الامم. واضحى مع ذلك اهل السواحل السوريّة رؤساء البحر وفاقوا كلّ القدماء في خوض غمراتهِ مدّة قرون متعدّدة فمخروا عبابهُ قبل اليونان بزمن طويل. ولمّا اراد البابليُّون وبنو اسرائيل ان ينشئوا لهم ملاحة ويعتروا السفن لم يستطيعوا اتمام مرغوبهم الّا بأَن يلتجئوا الى الفينيقيين(٢ وسليمان الملك راسل في ذلك حيرام صاحب صور كما ذكر الكتاب الكريم. لانّ الفينيقيين كانوا اوقفوا نفوسهم ليكونوا سعاةً وعمّالًا بين الشعوب الساكنة على سواحل البحر المتوسّط ففتحوا في كل مرفأ مكتبًا تجاريًا لمعاملاتهم. وسبقت صور وصيدا غيرهما من المدن في الاستعمار

---

١) اطلب الجغرافية التاريخيّة Georges A. Smith : *Historical geogr.*, p. 13

٢) راجع كتاب دليتش في موقع الفردوس (Delitzsch : *Wo lag das Paradies?*, p. 99)

فانَّ اوَّل مستعمرة يذكر التاريخ انشاءها ينسبها لتينك المدينتين . واليهما يعود الفضل في توسيع المعاملات التجاريَّة وتعميمها بين الدول . فان المتاجرات كانت قبل ذلك محصورة بين الشعوب المتجاورة فتستبدل الواحدة ما يزيد على احتياجها مما ينقصها من محصولات جارتها . والتجارة على هذه الصورة ترتقي الى اوّل العالم . امَّا الفينيقيون فانَّهم انشأوا التجارة الكبرى اعني التجارة البحريَّة فنالوا من الفخر ما لم يحصل عليهِ شعب آخر الى القرن السادس عشر اذ دخل فنّ الملاحة في طور جديد باكتشاف قارة اميركة (١ . وما يزيد فضلهم انَّهم اوَّل من نهج تلك المسالك وكان المصريُّون من قبلهم كما البابليُّون والصينيُّون منزوين في اصقاعهم يتنعَّمون بهبات الطبيعة دون ان يفكّروا في نشرها بين غيرهم

وفي هذا لعمري عبرةٌ للمعتبرين لا سيَّما اذا قابلوا بين صغر بلاد فينيقية وسعة مستعمرات اهلها وبعدها السحيق . وليس في ذلك ما تُنكر صحَّتهُ او يُردّ برهانهُ لأنَّ التاريخ قد بيَّن مذ ذاك العهد انَّ الدول التي ضاقت مساحة املاكها اذا ما كانت مجاورة للبحر في احدى جهاتها كانت اسرع الى الاستعمار وأحكم فيهِ من الدول الكبيرة ذات التخوم الفسيحة لأنَّ هذه الدول لا يمكنها ان تستعمر في الخارج قبل ان تقوم باستعمارها الداخليّ فتحسّن املاكها وتستثمر اراضيها وكلّ ذلك يقتضي زمنًا مديدًا بل اجيالًا طويلة ويستفرغ قوى الأُمة . ولو سهت عن ذلك وقدَّمت الاستعمارات الخارجيَّة عرَّضت نفسها الى التهلكة كما حدث آخرًا لروسيَّة التي تملك في اوربَّة على انحاء متَّسعة واقطار فسيحة بينها السهول القفرة التي لم تُحسن زراعتها فارادت ان تزيد في املاكها الاسيويَّة الى حدود الشرق الاقصى فكان من امرها ما كان واصابها من الويلات ما هو فوق نكبات حربها مع اليابان . ولنا بيّنة على صدق هذا القول في تاريخ البرتغال والبندقيَّة وجنوة وهولندة وفي ايَّامنا هذه في تاريخ بلجكة فرأينا ما نالتهُ هذه الدول الصغيرة من الفوز والتقدّم في استعماراتها

ومثَل البندقيَّة حريٌّ بالاعتبار لأنَّها جدَّدت بعد الفي سنة اعمال الفينيقيين فنالت

(١ اطلب تاريخ التجارة في القدم, E. Speck: *Handelsgeschichte des Altertums*, I, 506–507)

في طرف البحر المتوسّط الغربيّ ما نالهُ الفينيقيُّون في الطرف الشرقيّ . وكلا البلدين في موقع متشابه واهلهما مولعون على سواء بالعيشة البحريّة . وانّما بينهما فرق واحـد وهو انّ الحركة الاستعماريّة للبنادقة ابتدأت من الغرب فبلغت الاقطار الواقعة في شرقيّ البحر المتوسّط (١

وقد سبق السوريّون وادركوا ما لموقع بلادهم من المحاسن وعرفوا انهم يصيبون الهدف اذا ما عانوا الاسفار البحرية وتكلّفوا اعمال التجارة فان توسّطهم بين الدول القديمة اعني بابل ومصر كان كافياً لأن يكسبهم الثروة الواسعة فينقلون الى اهلهم السلع المتعدّدة ويبتاعون منهم محصولات بلادهم المتوفّرة فيربحون على الوجهين الارباح الطائلة اذ يبيعون بالاسعار الغالية ويشترون بالاثمان المتهاودة . وفي ذلك سرّ غناهم العظيم وكما انهُ كان اقوى مهماز لتنشيط اعمالهم

واليوم ان تروّيت في احوال الامم التجاريّة وجدت انّ اسباب ترقّيها تنوط باحد هذه الامور الثلاثة اعني وضعهـا الجغرافيّ كاتّساع سواحلها ثم تركيب طبقاتها بتوفّر مناجم فحمها الحجري ثم احوالها الاقتصاديّة الدائرة على حرّية التبادل والمعاهدات التجاريّة المبنيّة على اصول قريبة وقوانين سهلة (٢ . فمن هذه الامور الثلاثة لا يسعنا الجواب على آخرها ونحن نجهل شروط التجارة بين الفينيقيين وبين غيرهم من الامم . اما الامر الثاني اعني الفحم فانّهم لم يكونوا اليهِ في حاجة لما اصابوا في جبالهم من ثروة الغابات التي تسدُّ حاجاتهم في تعمير السفن وهم لا يعرفون اذ ذاك تسيير السفن بقوّة البخار . فيبقى علينا ان نبحث عن الامر الاوّل فنبيّن الاسباب الجغرافيّة التي اكسبتهم احتكار التجارة البحريّة

ان نظرت الى لبنان رأيت سلسلتهُ تمتدُّ موازيةً للبحر لكنّها من مسافة الى اخرى تلقي في البحر رؤوساً تنتصب فوقهُ وتشرف عليهِ اخصُّها الرأس الابيض بين عكّا وصُوَر ثمّ راس نهر الكلب ولا سيّما راس الشقعة الناطح بطرَفهِ الهائل بين بترون وطرابلس

---

١) اطلب Edmond Demolins : *Comment la route crée le type social,* P. 347,349

٢) اطلب مقالتنا عن التجارة في القرن التاسع عشر (المشرق ١٠ : ٣٠)

وليس بين هذه الرؤوس الضخمة مكان الّا لأَودية حرجة عميقة او لسهول متوسطة في سعتها او لشقق مستطيلة من الرمل والصلصال تخترقها الصخور على صور شتّى منها داخل في البحر ومنها راكب بعضها على بعض ومنها المسنّن ومنها المروّس والمدرّج. فاقتضى على الاهلين الذين قطنوا في هذه الارض الحرجة بين البحر والجبل ان يوجّهوا بنظرهم الى مياه العرمرم لينالوا منها ما يسدُّ رمقهم امّا بالصيد واما بالمتاجرة بين مدينة واخرى. فهكذا كانت صيداء مقاماً للصيد كما يدلّ عليهِ اسمها قبل ان تضحي مركزًا بحريًا عظيماً

وهذه الملحوظات عن غرائب الساحل السوريّ كادت اليوم تبرح عن الخواطر بعد ان امتدّت على سيف البحر طرق العربات بل مُدّت الاسلاك الحديديّة لقواطر البخار فيسير المسافر على الطريق السويّة الممهّدة دائرًا حول رؤوس الساحل وقاطعًا لركام الصخور دون ان يحجزهُ حاجزٌ اللهمّ الّا رأس الشقعة الذي لم يتمكّن المهندسون من قطعهِ حتّى الآن. ولكن هيهات ان تجد مثل هذه الطريق السهلة في المسالك القديمة فانك لو نهجتها لعلمت ما يتكلّفهُ السائر في سيرهِ من المشقّة لينتقل من وادٍ الى آخر وما يحول دون مرامهِ من توريبات السكّة ومن المراقي الصعبة قبل ان يبلغ مكانًا قريباً لو امكنهُ قطعهُ على طريق مستقيم. فلا بدع أن الاهلين منذ نشأت التجارة فكّروا في تقصير هذه الطرق بالسلوك بحرًا وربّما كانت الطريق البحريّة هي وحدها الممكنة

وان قيل انّ السواحل السوريّة مكشوفة ليس فيها ملاجئ للسُّفن في وقت الانواء فضلًا عن انّ عدّة مرافئ كحيفا وطرابلس ولا سيّما يافا لا يمكن الرسوّ قربها ايّامًا طويلة في فصل الشتاء فكيف كان الفينيقيون يبحرون؟ نجيب على ذلك انّ الملاحة القديمة كانت تخالف ملاحتنا اليوم فانّ البحريين ما كانوا يُقلعون مراكبهم الّا في فصل الهدوّ وصفاء الجوّ فكانوا اذ ذاك يفضّلون الوقوف عند الرؤوس او عند الجزر البحريّة فلا يشعرون بهبوب النسيم حتّى يسرعوا الى السير على الساحل من مدينة الى مدينة ومن رأس الى رأس. وكانت السفن الفينيقيّة كبيرة مسطّحة لا تغوص كثيرًا في المياه حتّى انّها كانت تستطيع ان تصعد النيل الى الاقصر (١ فكان الملّاحون يواصلون

١) راجع التاريخ القديم لمسپيرو (Maspéro: *Hist. anc.*, II, 407)

سيرهم من ارواد الى طرابلس فبيروت فصيداء فصور راسين عند رووسها كما في طرابلس وبيروت او عند الجزُر المجاورة لها كما في ارواد وصيداء وصور ومستقين من العيون التي تُرى في كلّ هذه الامكنة جاريةً فيها ومخصبةً لها . اما في فصل الشتاء فترى مراكبنا اليوم اذا احسَّت بقرب النوْ اقلعت الى الغمر لئلّا تغوص بالرمل او تُلقي بهـا العاصفة على الصخور . وكان الفينيقيون في فصل الشتاء في مأمن من ذلك يجرُّون الى البرّ سفنهم الى ان تهدأ الريح وترول العاصفة

امّا اذا اعتبرت سواحل سوريَّة من حيث وضعها الجغرافيّ فانك تجد فيها مُسهّلات متعدّدة للملاحة القديمة فانّ مراحل السفن من مكان الى آخر كانت قصيرةً واذا ارست في محلّ صادفت فيهِ عيونًا دارَّة لا تنقطع وكذلك كان سيرها عاجلًا تجاري الساحل في خطِّـهِ المستقيم دون ان تتريَّث بالخلجان المتّسعة والمرافئ الباطنة وذلك فضلًا عمّا يهبُّ في السواحل السوريَّة من الرياح الثابتة الهبوب المعتدلةُ . فكل هذه الصفات لم تسمح للقدماء بان يتركوا شواطئهم سدًى كالدقعاء المقفرة تأوي اليها الضواري والكواسر وتسبح في مياهها النينان دون ان يستخدموها لمنافعهم امّا للصيد واما للمتاجرة

هذا ولا ننكر ان الساحل السوريّ مع صلاحيَّتهِ للملاحة لم يخلُ من بعض المخاطر كما رأينا وذلك لانكشافهِ وتعرُّضهِ للرياح الشماليَّة العاصفة ولكثرة ما يتخلّلهُ من الرؤوس والصخور البارزة لا ملجأ فيهِ للملّاح مع ما يلقاهُ في سيرهِ الى الجنوب من المقاومة من قبل المجاري المضادَّة (١) . فان كلّ ذلك يستدعي نظرًا صائبًا وحذاقة بالغـة في خوض البحر فكان ينال في هذا الجهاد اليوميّ خبرةً ليوسّع نطاق اسفارهِ البحريَّة التي كانت تساعدهُ عليها الغابات اللبنانيَّة اذ يجد في اخشابها ولا سيما ارزها ما يقوى بـهِ على مثل هذه الرحل البعيدة

وممّا تجدي السواحل السوريَّة من النفع لاصحابها فضـلًا عن الملاحة التجاريَّة

---

١) وما قد تحقَّق بالاختبار انّ للنيل فعلًا في استقامة السواحل السوريَّة لأن مجرى مياههِ مع الرياح التي تهبُّ على امتداد الساحل من جهة الجنوب الغربيّ قد جرّ الرمال التي يجرفها في سيرهِ الى شواطئ فلسطين وجعلها متساويةً خصوصًا جنوبيّ الكرمل . (راجع ما قلناهُ سابقًا في تسريح الابصار ج ٢)

مجاورتها للجبال القائمة في وجه سكّانها كأنّها تدعو اهلها الى قطع مشارفها ليلقوا ما وراءها ما يقوم بمعاشهم في السهول الواسعة الخصبة التي تسدّها تلك الجبال عنهم. ألا ترى انّ الساحل الفينيقي قليل الاتساع لا يستطيع اصحابه ان يستغلّوا ربع الارض ممّا لا غنًى عنهُ من القمح والزيت. وقد ذكر الكتاب المقدّس (سفر الملوك الثالث ف ٥) انّ غاية ما طلبهُ حيرام الصوري من سليمان الملك بدلًا من خدماتهِ مقدار من الزيت والحنطة. فهذه الحاجة في ساكن الساحل يُضاف اليها عدم وجودهِ لجزائر ينتفع من غلّاتها وبعدهِ عن قبرس الحافلة بسكّانها. كلّ ذلك صرف بنظر السوريّ الى جبلهِ ليفتح لهُ معبرًا يجتاز بهِ الى البقاع التي من ورائهِ فنقر في الصخور تلك المراقي الصعبة التي يقطعها المكاري مع بغالهِ بسرعة عجيبة وقدم ثابتة. وبسيرهِ هذا لا يلبث ان يعتاد ما هو اوسع عملًا واجدى نفعًا فيتحوّل الى قائد قوافل ولا يزال يجدُّ ويكدّ نافذًا في وسط اوديتهِ متولّجًا بين سيولها الجارفة ثمّ راقيًا الى اعالي جبلهِ حتّى يبلغ عطفهُ الآخر فيدخل في تلك السهول الداخليّة الفسيحة التي تُعدّ كاهراء حنطة لا تنفد مستغلّاتها وكان من هناك يضرب في الارض راحلًا الى انحاء العراق فيستجلب منها محصولاتها التي كان مواطنوهُ ينقلونها بحرًا الى الجزائر المجهولة الواقعة في بحر الظلمات

انهُ لناموس من نواميس الهيئة الاجتماعيّة انّ الدول التي تنحصر املاكها في حدود حرجة اذا كانت ثروتها واسعة ونقودها متوفّرة ان تطلب لضغطها منفذًا بتوسيع تجارتها والسعي وراء الاستعمارات. فقد ادرك اجدادنا السوريّون والفينيقيون هذه الحقيقة اذ ليس امرٌ جديد تحت الشمس فاستشفّوا ما وراء البلاد التي اعتبروها كحدودهم الشرقيّة بلادًا غيرها لاحت لهم في اعماق الأفق نريد شبه الجزيرتين الهنديّتين وما يُطيف بهما من الجزائر فاستوقفت تلك الاقطار انظارهم بما تتضمّنهُ من المرافق العديدة والثروة النباتيّة الواسعة واصناف الزهور الناصعة الالوان التي تفوق ما يُرى من ذلك في غيرها من الانحاء. فلم تثبّط همّتهم المسافات الطويلة والعوائق المتعدّدة. فكانوا ينقلون من حدودها ما يستحبُّهُ تمدُّن ذلك الزمان لحاجاتهِ او لذّاتهِ من افاويه وعطور وزيوت طيّارة واقمشة زاهية وضروب القطنيّات الهنديّة الرقيقة والانسجة المشرقة الالوان واصناف الحرائر البهيّة التي يبذل الباعة الدينار في حقّها بيدٍ سخيّة. وكذلك

كانوا يستجلبون من الهند المعادن الثمينة كسبائك الذهب وصفائح الفضة واللؤلؤ والعقيق والياقوت وقطع الماس التي تزدان بها تيجان الملوك واكلّة الاميرات. وكان الناس لاعتبارهم لتلك البلاد يروون عنها العجائب والغرائب فيعدّون ارضها تبرًا وهواءها مسكًا وثمارها شفاء وقوّة وطيرها شبيهًا بالانسان في نباهته وحسنه

فتجارة الهند في تلك القرون البعيدة كانت تُحسب كثروة البلاد وغنى الشعوب كما حسبها بعد ذلك اهل القرون الوسطى. وكانت تلك التجارة تروج او تكسد على مقتضى امور الزمان وصروف الحدثان ينقلها من مظانّها الكلدان والعرب تأتي بها قوافلهم على طريق آسية الوسطى الى اطراف بحر العجم او البحر الاحمر وكان الفينيقيون يرحلون الى جهات بابل والى انحاء اليمن فينقلون تلك المحصولات الى المرافئ السوريّة فيصرفونها الى الغرب

*

وكان من نواميس العالم القديم انّهم اذا ارادوا المتاجرة مع الاقطار النائية يفضّلون في ذلك الطرق البرّيّة رغمًا عن طولها على خوض البحار وان كانت طريقها اقرب واقصر. وذلك على خلاف ما ترى في تجارتنا اليوم وهي تؤثر الطريق البحريّة على سواها فتسير المراكب الى اقصى ما تستطيع لأنهم يجدون في تفضيل البحر سرعة فضلًا عن كونها اقلّ كُلَفًا. لكنّ هذا النظام حديث ابتدأ منذ انتشرت الملاحة الشراعيّة الكبرى ولا سيما منذ اكتشاف القوّة البخاريّة. وكانوا قديمًا لا يركبون البحر الّا لمواصلة الطريق البرّيّة لأنّ الملّاحين القدماء كانوا اذا اقلعوا قاصدين بلدًا معلومًا لا يعرفون ما سينالهم في طريقهم من العاقات وخصوصًا ما سيلقون من الرياح الموافقة او المعاكسة فيعرفون ساعة خروجهم ولا يعلمون يوم وصولهم. ولذلك كان القدماء لا يتجشمون اهوال البحر الّا عند الضرورة الماسّة (١ وكان الفينيقيّون يرون في ذلك رأي غيرهم من الشعوب مع كونهم ادخلوا البحر في تاريخ العالم. وبينما نشاهد اليوم التجارة مترتّبة على الملاحة منوطة بها في المعاملات كانت على عكس ذلك في الزمن

١) اطلب مقالة بيرارد في المجلّة الاثرية (V. Bérard, *Revue arch.*, 1899, I, 80)

القديم برّيّةً محضاً. فلا نرى انهُ خطَرَ على بال احدٍ ان يصرف القناطير المقنطرة لفتح قناة كقناة سويس او قناة بناما. فان نظرت مثلاً الى الحِميريين وكان لا يفصلهم عن مصر الّا بحر صغير ترى انهم كانوا يفضِلون على هذا السفر القصير في بحر القلزم طريقاً بعيدةً كانت القوافل تتبعها فتسير على سيف البحر الى وادي موسى ثمّ الى غزّة وهي الطريق التي كان يسلكها العرب الى زمن ابي سفيان والى اوائل تاريخ الهجرة. ولعلّهم لم يختاروا البحر للاخطار التي كانت تتهدّدهم في البحر الاحمر والسَّفَر فيهِ صعب لكثرة صخورهِ وتعدُّد مجاريهِ وشواطئهِ الرمليّة فضلاً عمّا كان في سواحلهِ من القرصان او اللصوص الذين يهجمون على الغرقى فينهبونهم او يستعبدونهم (١

من اراد ان يدرك ما اكسب سوريّة سابقاً حسن موقعها من المنافع الاقتصاديّة حيث كانت الطريق الواصلة بين الشعوب يجب عليهِ ان يجرّد فكرهُ عمّا استفدناهُ اليوم من الاحوال الحاضرة وترقّي المواصلات البحريّة التي اضحت في عهدنا الطريق اللاحبة التي تضمّ الامم العاملة الى بعضها كما صرّح بذلك آخراً جلالة الملك ليوبلد الثاني ملك بلجكة

إن اقرب الطريق وآمنها لتجارة الهند قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح انّما كانت الطريق البرّيّة على مسير وادي الفرات. اما في وقت الحروب فكثيراً ما كانت تنسدّ هذه الطريق المثلى بين البحر المتوسّط وخليج العجم في وجه القفول التجاريّة فتستبدلها بطريق اخرى كثيرة العقبات ذات اخطار جمّة وهي طريق بحر القلزم او جزيرة العرب لكنّ هذا البحر لم يتجاسر احد ان يتجشّم اخطارهُ قبل أن يتوفّق هيپالوس الى اكتشاف الرياح المنظّمة التي تُعرف بالمواسم (٢ وذلك في القرن الاوّل للمسيح ومذ ذاك الحين فقط جرت بحراً معاملات بين الهند وسواحل اليمن ومرافئ بحر القلزم مباشرةً

اما الطريق البرّيّة التي كانت تقطع صحاري العرب هي التي اكسبت اهل

---

١) اطلب تاريخ التجارة (Speck: *Handelsgeschichte*, I, 17-18)

٢) هي رياح تتناوب من الغرب الى الشرق ستّة اشهر ثم تُنعكس ستّة اشهر اخرى. والمرجّح انّ الافرنج استعاروا لفظة « mousson » مَوْسِم من العربيّة بواسطة اللغات الايبريّة. اطلب شروحنا في كتابنا « *Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe* »

الجزيرة غنًى وازدهارًا لا سيَّما السابئين والنبط والحِميريين والقريشيين

والفضل كلّ الفضل للفينيقيين اذ سبقوا فادركوا ما للطريق البرّيَّة من عظم الشأن فانَّ ثروة الهند ومرافق الشرق الاقصى ما كانت لتجد سبيلًا اوفق تجري فيهِ لتبلغ الى مركز العالم المتمدّن. وادركوا فوق ذلك انهُ اجدى اليهم ربحًا لو استلموا تلك المحصولات الجليلة في محطّاتها البعيدة ليخفّفوا بذلك عنـاء القوافل ويقتصروا بعض المراحل من طرقها الطويلة رغبةً في ضبط البضائع والتصرّف فيها قبل غيرهم. ومما فُطر عليهِ آل فينيقية ارتياحهم الى الدِلالة فانهم كانوا نِعَم السماسرة يتوسّطون بين الباعة والمشترين ولا يريدون بينهم وبين الباعة وسيطاً فتتضاعف بذلك ارباحهم اذ يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً فعليهم المعوَّل في كلّ المعاملات التجاريَّة لا يزاحمهم فيها احد ولا يقف المراقب على حقيقة متاجراتهم وبذلك اضحوا ارباب التجارة يدركون كنه اسرارها ولا يفوتهم شيء من وجوهها

وهذه المتاجرات عينهـا حدت بالفينيقيين الى تجهيز القوافل البرّيَّة وقيادتها فنالوا بذلك قصبة السبق على من سواهم. لانَّ الطرائق التجاريَّة في سالف الازمـان كانت مباينة لطرائقها اليوم (١ فكانوا اذا ارادوا تصريف بضائعهم انتقلوا مع القوافل الى حيث يرومون بيعها فيدرسون كلّ بلد ويتعلّمون لغتهُ ويختلطون باهلهِ ويفقهون عجرهُ وبجرهُ وكلّ ذلك لتتيسَّر لهم المتاجرة وتزيد ارباحهم. وذلك على خلاف ما نرى اليوم بعد اكتشاف السكك الحديديَّة والبواخر فانَّ البضائع تصل الى طالبيها دون ان يحتاج البائع الى ان يرافقها

وكان تدبير القوافل الفينيقيَّة يقتضي درايةً عظيمة وحذقًا بليغًا في المعاملات. ومما كان يترتَّب على رئيسها ان يُحسن نظامها ويؤلّف قلوب اصحابها ويجمع قواهم لنجاح المشروع كما انـهُ كان يسعى في طريقهِ بان يكسب ثقة الاهلين ويتقرَّب من امرائهم وينتهز الفُرص اللائقة لمبايعتهم ويتعرَّف ما يروج عندهم من الاسواق. وخلاصة القول كان يتَّخذ كلّ المعلومات اللازمة التي تزيد ثروتهُ وتوفّر ارباحهُ. وهكذا قد وصف لنا

---

١) H. Winckler: *Keilinschriften*, p. 169

كتبــة العرب تجَّار القريشيين في القرن السابع للميلاد (١ وفي مقدَّمتهم ابو سفيان الشهير. قال ابن الاثير في اسد الغابة في تعريف الصحابة (٥ : ٢١٦) : « كان (ابو سفيان) تاجرًا يجهز التجَّار بمالهِ ولموال قريش الى الشــام وغيرها من ارض العجم وكان يخرج احيانًا بنفسهِ وكانت اليهِ راية الرؤساء التي تسمَّى العقاب واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس »

والافادات السابق وصفها التي نالها الفينيقيُّون في رِحَلهم واسفارهم البرِّيَّة والبحريَّة توسَّلوا بهــا لترقية تجارتهم وصناعتهم وتوسيع نطاقهما فانهم بصائب نظرهم وتهافتهم على الاعمــال واحتكارهم للتجارة البرِّيَّة والبحريَّة بلغوا في آخر الطور اليوناني الروماني مبلغًا راقيًا فكأني بهم جعلوا في زمانهم الطرق الجائزة في سوريَّة الشماليَّة وفي سوريَّة الوسطى وفي بادية الشام نفسها بمثابة ترعة سويس في عهدنا . وكانت بور سعيدهم تَدمر الَّا انَّ تدمر كانت وقتئذٍ ملكة الصحراء تميس في مبانيهــا الفاخرة ومحاسنها الساحرة ليست كبور سعيدنا التي هي عبارة عن مدينة مستحدثة لا يُرى فيها غير حوانيت الباعة ومكاتب الحسَبة ومقامات المتاجرين بل كانت تدمر مزدانة بالهيا كل تأخذ بالابصار اروقتها البديعة وتماثيلها المحكمة الصنع مما يخلب القلب ولا تجد لهُ اثرًا في بور سعيد

فدعنا بعد هذا نمتِّع النظر بحسن وضع سوريَّة وبموقعها الجغرافي الفريد ونحن نجدها في مفرق الطرق التجاريَّة التي كان يسلكها العالم القديم فانَّها كانت قريبة من البرزخ الذي يصل آسية بافريقية بين وادي النيل ووادي الفرات وهناك كانت اعظم امم تلك الاعصار وارقاها في التمدُّن . وسوريَّة في وسطها تبعد مسافة يوم عن تخوم مصر وتكاد تتَّصل بمملكة اشور عند مجرى الفرات الغربيّ حيث يلتوي فيقترب من البحر . فانَّ هذا النهر متاخم لسوريَّة عند موقع قرقيش القديمة في المقــام المُعدّ لقطع سكَّة بغداد حيث لا يبعد عن البحر المتوسط في خطٍّ مستقيم اكثر من ١٥٠ الى ١٦٠ كيلومترًا. فما اسهل ما كان على الفينيقيين ان يتبطَّنوا وادي الفرات فيتبعوا بطائحهُ الى ان يبلغوا خليج العجم المتَّصل بها . وكانت ضفاف الفرات في تلك القرون حافلةً بالسكان متوفرة

١) اطلب كتاب العلَّامة مرغوليوث (Margoliouth: *Mohammed* p. 1)

المدن التي لا تزال آثارها ظاهرةً الى يومنا . وقد شهد على عمران تلك الجهات احد جغرافيي اللاتين يُدعى پمپونيوس ميلا (Pomponius Mela, III, 12) حيث وصف غنى الامم التي تقطن شمالي سوريَّة وقد نسب ثروتها « الى خصب مراكزها وكثرة انهارها التي تجري فيها السفن فتسهل بها المبادلات التجاريَّة »

فترى من ثمَّ انَّ سوريَّة كانت بموقعها العجيب اهلًا بان تصبح مركزًا لعلائق العالم القديم او قل بالحري انَّ الله جعلها رائدًا للتمدّن ووصلةً بين الامم العاديَّة اي المصريين والكلدان والامم الوسطى من يونان ورومان اجداد عالمنا المستجدّ . ولو رقينا في سُلَّم الاعصار الى اوائل القرون المتوسّطة وجدنا اهل سوريَّة يتأثَّرون اعقاب آبائهم فيتوسَّطون بين الغرب واواسط آسية فهم الذين ادخلوا التمدُّن اليوناني في مدرستَي نصيبين وجنديسابور كما انَّهم جلبوا الى الغرب مرافق تلك البلاد

٣

السوريون حَمَلة التمدُّن القديم

فمن كلّ ما سبق لا يبقى للقارئ ريب في انَّ اهل سوريَّة بتفرُّغهم للمبايعات وبتنقُّلهم في انحاء البرّ والبحر كانوا الرباط الوثيق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد النازحة عنهُ ومزجوا مزج الماء بالراح الشرق العتيق بالغرب المترعرع . نعم انهم كانوا قبل كلّ شيء يعملون لاغراضهم ومصالحهم الخصوصيَّة الَّا انَّ عملهم هذا كان يفيد الشعوب ايضًا فيعمّم ما تكلّ منها من المحاصيل ويخرجها من عزلتها فينتفع كلّ شعب مما اصابهُ الآخر سواء كان في الماديَّات او في الامور العقليَّة والادبيَّة والدينيَّة . وفي هذا لعمري جلُّ الفائدة لا سيَّما في تلك الازمنة التي كانت الشعوب لا تعرف بعضها الَّا في ساحات القتال . فالفينيقيون نقلوا الى الغرب تمدُّن وادَي النيل والفرات وعرَّفوا اهل تلك البلاد بمحصولات مصر وما بين النهرين واعمالهما الصناعيَّة بعد أن اخرجوها على هيئة جديدة توافق احوال الغربيين وتناسب حاجاتهم . ولعلَّهم اثاروا في قلوب تلك الشعوب